

العنوان:	التراث ضرورة عند تطوير المعمار العربي
المصدر:	المستقبل العربي
الناشر:	مركز دراسات الوحدة العربية
المؤلف الرئيسي:	الجادرجي، رفعة
المجلد/العدد:	مج3، ع25
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1981
الشهر:	مارس
الصفحات:	20 - 29
رقم MD:	711058
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	التراث العربي، التراث المعماري، الهندسة المعمارية، التقاليد التراثية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/711058

التراث ضرورة عند تطوير المعمار العربي

رفعة الجادرجي

مهندس معماري . له آراء وإنجازات بارزة في تطوير التراث المعماري للحضارة العربية الاسلامية .

من الطبيعي أن التطلع إلى المستقبل والعمل على دفع عجلة التطور إلى الأمام يتناقض مع الالتفات إلى الماضي والتوق إلى مخلفاته والسعي للتمسك بها . ولو أمعنا فكرنا في عملية إدخال بعض المعالم التراثية في العمارة لوجدنا أنها تشكل عقبة وعامل إعاقة في التطلع إلى المستقبل . ويتضح ذلك في عنصرين رئيسيين من عناصر بناء العمارة . وهما الناحية الجمالية الحديثة والناحية الانتاجية المعاصرة ، وما تنطويان عليه من تضاد مع الأشكال التراثية . ولنبين بشيء من التفصيل هذا التناقض أو التضاد .

○ إذا نظرنا إلى الناحية الجمالية في بناء العمارة لوجدنا أن لكل طراز من العمارة اشكاله الجمالية المميزة له تتوافق وتنسجم مع أدوات الانتاج المستخدمة فيه ، وهي في الوقت نفسه حصرية له . ولغرض توضيح بحثنا سنحدد أسلوبين من طرق الانتاج هما الانتاج الحرفي التقليدي والانتاج الممكن المعاصر . ويمتلك هذان الطرازان أشكالهما الجمالية الخاصة بهما التي تتوافق مع طرق الانتاج ، ولذلك نلاحظ التوافق بين العملية الانتاجية والتكوين الجمالي . فلو أخذنا مثلاً العمل الحرفي لرأينا أنه قد ولد أشكاله المميزة له مثل المقرنص ، بينما ولد الانتاج الممكن جمالية الكونكريت ذي الوجه الظاهر ، وكلاهما ينسجمان مع الطرق الانتاجية الخاصة بهما ويختلفان اختلافاً تاماً مع بعضهما البعض .

○ أما الناحية الثانية ، فهي أسلوب الانتاج المعاصر والذي يتسم بطابع الانتاج الاجمالي وهو ما نسعى إلى إدخاله وتعميمه في مختلف الحقول البنائية . ولو نظرنا إلى الانتاج بالجملة لوجدناه يتناقض مع صيغ الأشكال التراثية . فالأشكال التراثية تستمد أصولها من صناعة يدوية حرفية تختلف مقوماتها وظروفها الانتاجية اختلافاً تاماً عن التكنولوجيا المعاصرة . ويتجسد هذا الاختلاف في ناحيتين رئيسيتين : الناحية الجمالية التي وضحناها أعلاه ، الناحية الاقتصادية . تختلف الناحية الاقتصادية في الانتاج المعاصر اختلافاً تاماً عما كان عليه في الماضي . فبينما كان الانتاج في الماضي يعتمد العمل الحرفي اليدوي لانتاج الصنائع الفريدة ، فقد أصبح الانتاج المعاصر ممكناً وذا طابع جملي . إن العمل الحرفي يستخدم مواداً إنشائية محلية توافق مع العمل والخبرة المحلية ، بينما يعتمد الانتاج المعاصر على مواد معقدة التراكيب وطرق إنتاجية وخبرات

تكنولوجية قد تجاوزت الحدود المحلية والقومية وأصبحت ، إلى حد كبير ، لها طابع عالمي . وعليه أصبح الطابوق التقليدي - والذي هو من صنع يدوي - غير اقتصادي بالمقارنة مع الألواح الكونكريتية في البناء الجاهز والتي هي حسيبة الانتاج الجملي .

○ ولنتنقل إلى ناحية أخرى من نواحي التراث تتعلق بوسائل الاعلام المعاصرة . أصبح الاعلام المعاصر يشكل جزءاً هاماً في حياتنا اليومية وفي نشاطنا الفكري والثقافي . وهو لا يتوقف عند حدود تعريفنا للفنون والتقاليد الشعبية والقومية لشعوب العالم بما فيها الشعب العربي في أقطاره المختلفة ، وإنما يتعداها إلى مجال آخر يدخل في صلب حياتنا القومية . يعمل الاعلام إبان تعريفنا بالفنون المحلية والعالمية على التخفيف من السمات القومية التي تتميز بها . إن تقبلنا لفنون الشعوب الأخرى يفضي بالضرورة إلى تطوير ذوقنا ومداه بعناصر جديدة نتمثلها تدريجياً . إن الطابع العام لوسائل الاعلام يجعلها لا تقتصر على طبقة معينة أو قطر واحد أو لون خاص من ألوان الفنون . وهي في الوقت ذاته تتميز بسرعة النقل وتحطيم المسافات وتمد المشاهد بأحدث ما يجري من تطور وتقدم في مختلف أرجاء العالم ، دون أدنى تأخير . يخلق ذلك كله عند الفرد تطلعات جديدة تقوده بشكل عفوي أو واع إلى المقارنة والمقابلة بين ما يعرفه وما يراه من جديد في الحياة الثقافية للأسرة العالمية . وهكذا يعمل الاعلام الحديث على تحطيم الحدود المحلية الضيقة وفتح نوافذ على الحياة الثقافية العالمية المعاصرة . ويؤدي هذا بدوره إلى خلق التناقض بين الواقع التراثي - الذي يعبر عن عاطفه محلية معينة للقرية أو المدينة أو القطر - والروافد الثقافية العالمية ، ويضعف بالتالي الجانب التراثي .

وهناك عامل آخر يعمل على التخفيف من قوة التقاليد التراثية المحلية تفرضه طبيعة الحياة المعاصرة . إذ تجد كثير من الشعوب - حتى التي تربطها روابط قومية أو عقائدية أو دينية أو تجمعها علاقات إقتصادية وثقافية مرحلية - أنها مضطرة لتجاوز بعض تقاليدها وأساليبها المعاشية لتتمكن من التعامل فيما بينها بصورة أفضل . إن تجاوز التقاليد المحلية يعمل على التخفيف من خصوصية الشعوب ومميزاتها الذاتية .

إذن يمكننا أن نجمل قولنا بأن التطور الحاصل في التكنولوجيا والناحية الجمالية ووسائل الاعلام والاقتصاد وتقارب الشعوب يتنافى مع بقاء التقاليد المحلية والخصوصية القومية ، ويتمشى في الوقت نفسه ، مع طبيعة التطور التي تقتضي إلغاء القديم واستحداث الجديد . إن الجديد مترابط مع المفاهيم المعاصرة والطرق العملية التي تجاوزت نطاق الحدود المحلية ومتناقض مع الخصائص المحلية . ولكن تقابل سيادة النزعة العالمية والطابع العام في الحياة القومية ، نزعة مغايرة أخرى تتجلى في انتوق نحو التراث وإحيائه في مختلف ميادينه ومظاهره ومنها فن العمارة . وتولي نهضتنا القومية اهتماماً خاصاً للجانب التراثي ودوره في حياتنا العامة . إن هذا الاهتمام يمتلك عناصره ومسبباته في طبيعة المرحلة التاريخية التي نجتازها ، فالتعلق بالتراث والتوق إليه يفيد في دعم المرحلة الراهنة عن طريق ترابط الحاضر بالماضي ، وإيجاد أرضية ثقافية صلبة تكون حافزاً للشعب نحو إنجاز المهمات المطروحة أمامه . ويؤدي التمسك بالتراث إلى تطوير الثقة بالنفس والاعتماد عليها ويساعد على اكتشاف خصوصيته وملامحه الذاتية . ونلخص قولنا بأن الموقف الراهن من التراث ينبعث من أسباب مرحلية تفرضها الحقبة الحالية والتي قد تتغير في مرحلة تالية . وعليه يتخذ إبراز التراث - وفق هذا المفهوم - طابعاً مرحلياً .

○ إنطلاقاً من هذا التحليل ، يمكننا أن ندرك مصدر حيرة بعض المفكرين والعاملين في حقل العمارة . فالنتاج الابداعي يتطلب التطلع إلى المستقبل في كلا المقيدين ، أو القطبين ، وأعني بهما المقرر التكنولوجي والمطلب الاجتماعي - الذي ينطوي على الناحية الجمالية أيضاً - ويولد شكل العمارة كحصىة للتفاعل الجدلي بين هذين المقيدين . يجد المفكر أن إدخال التراث ، باعتباره أحد مكونات المقرر في تكوين الشكل ، يقتضي الرجوع إلى الماضي ، بينما يناقض الرجوع - بطبيعة الحال - التطلع نحو المستقبل . ومن هنا مبعث الحيرة التي يعقبها التوتر النفسي لدى المفكرين في فن العمارة وحتى لدى بعض المفكرين الذين أبدعوا في إدخال المعالم التراثية في عملهم المعماري . ولا ريب أن هذه الحيرة أو التوتر النفسي يشكل عائقاً فكرياً في تقدم عمل المعماري وتطويره . وعليه يصبح من الضرورة بمكان تسوية هذا التناقض أو العمل على تخفيف حدته كي يتمكن بالتالي المفكر المعماري العربي من الانطلاق في العمل وهو مرتاح البال .. إن تذليل التناقض يمكننا من استحداث إستراتيجيات ثورية وحضارة ملائمة ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد .

لا مندوحة للمفكر المعماري ، الذي يطمح للاسهام بصدق في دعم المسيرة بتكوين مستقبل حضاري متميز ، عن أن يدرك الحاضر بكل أبعاده الحقيقية . فالحاضر لا يمكن أن يشكل شريحة منعزلة في التاريخ بل هو حلقة تمتد سلسلتها إلى أعماق الماضي . وإذا رفضنا الماضي أو تجاهلناه أصبح الحاضر باهتاً سقيماً وغدا التطلع إلى المستقبل عقيماً لأنه انطلق أصلاً من حاضر مبلد . إذن يصبح إيجاد التوازن ، في الممارسة المعمارية ، بين الماضي والحاضر ضرورة ملحة . وبكلمة أخرى ينبغي على المفكر المعماري أن يضع صيغة واضحة للحاضر تجمع بين تكنولوجيا إقتصادية معاصرة ومفهوم جمالي طبيعي ، وتعمل هذه الصيغة على صهر المفاهيم التراثية في الوقت نفسه . وبهذا وحده يستطيع العمار ، حسب اعتقادي ، أن يسهم في بناء حاضر ومستقبل حضاري يتسم بالسمة الخصوصية التي نصبو لبلوغها .

وقبل البدء في بحث ما هو التراث وبأنه ضرورة حضارية وكيفية صهره في الانتاج المعاصر نود أن نبين بعض الملاحظات حول التناقض الذي أشرنا إليه :

١ - إن التناقض بين الانتاج المعاصر والتراث ، هو تناقض مرحلي بحد ذاته ، فقد أخذ الانتاج الكمي يتطور نحو ذلك المتنوع وبموجب برمجة إلكترونية ، ولذلك فإن الظروف التي ولدت التناقض هي وقتية وزائلة .

٢ - يتطلب العمل الابداعي الانطلاق من مفاهيم جمالية رائدة مرتبطة بالمفاهيم العالمية ويؤدي صهر جوهر التراث فيها إلى إغنائها بينما يفضي الاعراض عن التراث وإهماله إلى حرمانها من تلك الظلال والألوان التي تخلع عليها جمالاً خاصاً .

٣ - يعمل التقارب بين الشعوب والأقوام المتباينة والاطلاع على فنون بعضها البعض إلى إغناء هذه الشعوب وإثراء إمكاناتها الفنية وتطويرها . ويصبح التخطيط لحفظ التراث وإحيائه وبعثه ضرورياً من أجل تجنب فقدان الشعوب هويتها التراثية وخصوصيتها المحلية .

٤ - ما دام الحفاظ على التراث وصيانته له أهمية كبيرة في الوقت الراهن ، فإن تطلعنا لابرز التراث في العمارة يتوافق مع الطموح الرامي إلى تكوين سمات معمارية متميزة تتلحق بعمارتي الحاضر والمستقبل . ويعود الاهتمام بالسمات الخصوصية إلى مفهومنا تجاه الحضارة .

لا تقتصر الحضارة التي نتوق إليها على تهيئة المكونات المادية وتأمين مستوى معاشي جيد للفرد العراقي فقط ، وإنما تتجاوز ذلك وتعنى بتطوير التفرد الخاص والعام . ويمكننا القول - إنطلاقاً من هذا المنظور - باننا في دعمنا وإبرازنا السمات الخصوصية العربية لا نقوم بدعم مسألة مرحلية فحسب ، وإنما مسألة أساسية في التكوين الحضاري . فنحن لا نريد أن تكون العمارة العربية مماثلة للعمارة الأوروبية أو نسخة منها . والأمر يتطلب من المفكر المعماري إبداع بديل للعمارة الأوروبية وتكوين حضارة مستقبلية لها خصوصيتها وطابعها المستقل ومختلفة عن العمارة العربية والإسلامية التقليدية ، بل ولا مانع من خصوصيتها على مستوى الأقطار المختلفة . ويتطلب الحفاظ على التراث في العمارة ، أو بالأحرى تطوير عمارة حديثة ذات ملامح خاصة ، الأخذ من التراث وصهر جوهره في العمل المعماري الحاضر والمستقبلي . ويمكننا - مما مرّ ذكره - وصف التناقض المطروح أمامنا بصفة من الصفات الثلاث : فهو إما تناقض ظاهري أو مرحلي أو حقيقي . ومهما كان الأمر ، فإن تذليله وتخفيف حدته أو حتى تحويله إلى توافق مجد يعتبر قضية أساسية .

○ لا مفر لنا من التأكيد على هذا المبدأ المهم في عملنا وهو الخصوصية . إن الانسان المعاصر يتطور على أساس ظهور نزعة الذاتية والتفرد المذهب . إن نمو الشخصية يعتمد على تفرد الانسانية من جهة وعلى تأثرها بالعوامل البيئية التي يتعرض لها العالم الوجداني للفرد إبان عملية النمو والتكامل من جهة أخرى . وإذا نظرنا ملياً إلى العوامل التي تلعب دورها في تكوين السمات الفردية الخاصة لدى الانسان لوجدنا عاملين مهمين يعود لهما الفضل في بروز تلك السمات الفردية وهما : الأول العامل الوراثي والثاني العامل البيئي . العامل الوراثي متباين ومختلف بين فرد وآخر ، وكذلك العامل البيئي يتسم بالتنوع والاختلاف . ومرجع ذلك أن رذود فعل النفس الانسانية على البيئة متعدد ومتنوع . فالنفس الانسانية تمتلك خصوصيتها الفردية ولذلك تلعب طبيعتها الذاتية دورها المتميز عند تفاعلها مع البيئة الخارجية .

إذا كان الأمر هكذا على الصعيد الفردي ، فكيف يكون على الصعيد المحلي والقطري والقومي ؟ لا بد إذن أن تكون أسباب التغيرات متنوعة وكثيرة لدى مختلف الشعوب والقوميات . ولكن التقدم التكنولوجي المعاصر أخذ يفعل فعله في تقارب البيئات المختلفة وتقوية عوامل التشابه فيما بينها ويؤثر في تلاشي تفرداها في أساليب المعيشة والثقافة . لقد أخذت الفوارق تزول في الملابس والمأكل والعمارة وغيرها . فقد أدى التقارب التكنولوجي والسياسي والاقتصادي بين الشعوب إلى تنشيط التبادل فيما بينها والتأثير في بعضها الآخر وتكيفها إلى درجة كبيرة أو صغيرة حسب موقع كل منها في هذا التبادل المترابط المعقد . ومن الطبيعي أن هناك حصيلة إيجابية وأخرى سلبية لمثل هذا التبادل الواسع والترابط الشامل بين الشعوب . وإذا كانت الناحية الإيجابية تتجلى في فتح آفاق عالمية رحبة أمام الشعوب ، فإن الناحية السلبية تتمثل في إضعاف السمات القومية المحلية ، بل ربما تفضي إلى فقدانها وتلاشيها . علينا أن نطرح ضمن هذا الاطار لمفهوم التراث ، السؤال حول طبيعة الحضارة التي نطمح إليها . فاليوم تبذل جهود جبارة وتمر ليال مضنية من السهاد والسهر في سبيل تهيئة المتطلبات المادية والمعنوية للمواطن بما في ذلك المسكن والمأكل والتعليم ووسائل اللهو ، فهل نقبل بعد هذا الجهد الكبير أن تكون حصيلة هذا كله خلق وضع إجتماعي يفتقر إلى السمات الخصوصية ، اعني إلى حضارة لا تمتلك طابعاً خاصاً أو لونهاً معيناً ؟ وهل يمكن أن نسمي ذلك بالحضارة ما دامت تنفق على السمات الخصوصية

المتميّزة ، ومتى شهد تاريخ الأمم تبلور وضع إجتماعي دون أن يخلق لنفسه ويطور خصوصية متميزة كي ينعت بالحضارة ؟ نحن لا نقبل هذا المسار ، ومطلوب من المعمار الاسهام في تهيئة الظروف المادية والبيئية الكفيلة بتوفير الجو الروحي والعاطفي اللائم للمواطن ، بما في ذلك التفرد العام والخاص ، أي الخصوصية في التكوين البيئي . عندئذ يصبح المواطن فخوراً بخصوصيته في كل قطر معتدا بها . من هذا المفهوم تتخذ العمارة منزلة مهمة باعتبارها وسيلة لتحقيق هذا الطموح المستقبلي . وإذا لم نعمل بجد في إيجاد الحلول المناسبة لصهر الخصوصية التراثية في كيان متقدم ورائد ، فإن العمارة ستفشل ويصيبها الخذلان في الاسهام بهذا الطموح . وعلينا أن نسعى لتحقيق صهر التراث ، لأن هذا لا يعتبر مجرد متعة ، وإنما هو مطلب مرحلي مهم وضرورة حضارية أساسية . وقبل الانتقال إلى محاولة تشخيص معالم التراث الاسلامي العربي أود تعريف التراث عموماً أو بالأحرى توضيح مفهومي له .

○ يتكون التراث - حسب اعتقادي - من تلك الموجودات المادية والروحية التي تشكل تاريخ الأمة . وتتبلور تلك الموجودات في إدراك المجتمع في حالتين : الأولى هي ما نسميه بالحالة الفعالة ، والثانية الحالة المسببة . فما هي طبيعة هاتين الحالتين وصفاتهما ؟ تتكون الحالة الفعالة من تراكمات الموجودات المادية والروحية المتفاعلة فيما بينها والتي تشكل بدورها طاقماً من الموجودات الخاصة بمرحلة محددة من المراحل التاريخية كما يدركها المجتمع ، ويمتلك كل طاقم مجموعة معينة من الموجودات المتراكمة التي تنتظم وفق تسلسل خاص له وأوليواته المحددة . يمثل هذا التراث الفعال القاعدة الفكرية للمجتمع . ولا يتفوق فكر المجتمع على نفسه أو يتخذ سمات ثابتة لا تقبل التغير والتحول ، بل يتفاعل باستمرار مع المدخلات الفكرية الجديدة متكيفاً ومتطوراً وفق ما تقتضيه الضرورة الاجتماعية . تؤدي عملية التفاعل والتطور هذه إلى زوال بعض التراكمات واضمحلالها وحلول تراكمات جديدة أخرى محلها . وهكذا ينتقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى عبر عملية دائمة من تراكم الموجودات واضمحلال بعضها . أما الحالة المسببة ، فتتكون من موجودات حقيقية ، ولكنها لا تمتلك قوة فاعلة في إدراك المجتمع . ولما كان المجتمع في حركة دائمة وبحث متواصل ، فإنه يقوم أحياناً بالتفاعل مع بعض هذه الموجودات المسببة . ويصبح هذا التفاعل النشط المتجدد جزءاً من إدراك المجتمع ويتخذ مكانه المتسلسل المناسب في طاقم الإدراك العام لمرحلة من المراحل التاريخية .. إذا نظرنا لتراث العراق - على سبيل المثال - في حالتيه الفعالة والمسببة ، لوجدناه ثرياً كثيفاً ويمتلك علاقات وتراكيب معقدة متشابكة . ولا يحتاج المفكر المعماري إلا أن يمد يده ليفترق الكثير منه ، أما إذا بحث وتقصى فسيعثر على كنوز لا تحصى .

ولكن السؤال الذي يواجهنا وي طرح نفسه أمامنا هو كيفية إدخال التراث في التكوين المعماري الحديث . إنني لا أقر اقتباس معالم تراثية ولصقتها على هيكل معماري شديد باستخدام وسائل انتاجية حديثة . فإدخال التراث لا يعني تزويق الأبنية بمعالم الماضي الحضارية . إن اللصق والتزويق - حسب اعتقادي - يدلان على إخفاقنا في توليد وإنشاء عمارة رائدة تترجم التطور الثوري الحالي . ونكون بهذا في الوقت ذاته قد أخرجنا المعالم التراثية من إطارها الخاص وجردناها من علاقاتها التكوينية التاريخية . إن الاقدام على مثل هذه الخطوة يعني قيامنا بعملية مضادة للمنطق الجدلي في إنشاء العمارة وتكوينها الذي يفترض بأن الشكل المعماري هو حصيللة التفاعل الجدلي بين المطلب الاجتماعي من جهة وتكنولوجيا التنفيذ من جهة أخرى . ويسوقنا المفهوم الخاطيء للشكل المعماري إلى متهاة الاقتطافية ، أي ، بعبارة أخرى إلى الاقتباس المتنافر ،

وبالتالي يفرض بنا هذا المسار إلى الابتذال في العمارة . إن ما نتطلع إليه هو شكل معماري معاصر ورائد ، يتوافق مع الانتاج التكنولوجي المتقدم ويأتي كحصيلية طبيعية له . ولا بد أن يمتلك هذا الشكل خصوصية واضحة ، تتجلى في تكوينه المتقدم الطليعي . ولا يتسنى لنا ذلك ولا يصبح حقيقة واقعة إلا عن طريق صهر جوهر المعالم التراثية وروحها في صلب التكوين المعماري الجديد . ربما يتساءل البعض ماذا نعني بالتكوين المتقدم الطليعي ؟ إننا نقصد ذلك التكوين المعماري الذي نشأ نتيجة طبيعية للمفاهيم المتطورة والمتغيرة في العمارة العربية والعالمية الحديثة . إن الشكل العام للعمارتين العربية والعالمية هو حصيلية التطور التكنولوجي المعاصر والجمالية الحديثة الرائدة . ويكون هذان المفهومان - التكنولوجيا والجمالية - قطبين متزامنين ومتفاعلين ويولد أحدهما الآخر . ماذا أعني بصهر التراث ؟ إن صهر التراث في الشكل المعماري الحديث لا يعني نقل معالم الماضي أو استنساخها . فالنقل يتنافى مع جدلية التكوين الابداعي للشكل كما أشرنا سابقا . علينا أن نرفض النقل القائم على استنساخ صورة طبق الأصل من التراث دون إجراء تحويل أو تبديل عليه لأنه يتعارض مع متطلبات الانتاج المعاصر والمفاهيم الجمالية الحديثة .

الصهر المبدع لا يقبل باقتباس الشكل التراثي وإنما يهدف إلى تقطير جوهره . ولهذا التقطير أحكامه وقواعده الخاصة به التي تجعل عملية التقطير مجدبة ومثمرة . ونود التنبيه إلى حكمين رئيسيين لا بد منهما في كل عمل إبداعي : ١ - أن يكون المعماري العامل كفوئاً ومؤمناً بضرورة إدخال التراث ومدركاً لمفهوم التراث ومستوعباً له . ٢ - أن تجري عملية الصهر وفق الأحكام الجدلية في توليد الشكل الجديد . ولا بد أن نشير هنا إلى أن الإكراه والقسر في كلتا النقطتين اللتين أشرت إليهما لا يمكن أن يكون مجدياً . إن الكفاءة والايمان والعمل المثابر الواعي الصحيح لا بد من توفرهم في الابداع المعماري . فالحضارة التي نتوق إليها ليست حجارة خرساء صماء باهتة ، وإنما هي عملية إبداعية متواصلة .

○ قد يوصلنا هذا العرض للموضوع إلى السؤال التالي : ما هو التراث العربي الاسلامي وما هي خصائصه ؟ وهل يتفرد العراق - على سبيل المثال - بسمات خصوصية في هذا التراث ؟ الجواب الطبيعي على هذا السؤال هو نعم ، هناك سمات متميزة واضحة يتسم بها تراثنا . إن هذه الصفات تساعدنا على تحديد ماهية العمارة العربية والاسلامية والتي تمكننا بدورها من عقد مقارنة بينها وبين السمات المعمارية للحضارات الأوروبية والهندية والصينية وغيرها . أقام العرب والمسلمون صرحاً رائعاً للعمارة مستقلاً وقائماً بنفسه ومتميزاً عن عمارة الحضارات الأخرى . ويمكننا تعميم صفات العمارة العربية والاسلامية ضمن عشر صفات على الأقل سنأتي على ذكرها أدناه :

١ - تؤكد العمارة العربية وتبرز الحيز المطوق ، أي الفناء الداخلي . قد يتواجد هذا الحيز بمفرده أو بمجموعات متداخلة التركيب ومعقدة العلاقات . يقابل الفناء الداخلي النحت الخارجي في العمارة الأوروبية والهندية وإظهاره بجلاء ووضوح .

٢ - هناك صفة يطلق عليها « العمارة الخفية » ، فالعمارة هنا لا تعرض نفسها كصرح يمكن النظر إليه من الخارج ككل ومن جميع الجهات كما هو الحال في المعبد اليوناني أو الصرح النهضوي مثلاً . العمارة الخفية تتفاعل مع الفرد عندما يكون في داخلها ويتجول فيها وحده لا كمجموعة من الأفراد . عندئذ يشعر بالعلاقة الخفية التي تربطه بالتكوين المعماري (شكل ١) .

٣ - المنظر الخارجي العام للعمارة لا يعبر عن الداخل ولا يعكسه . ويمكن قول العكس أيضاً ، فقد يكون الخارج جداراً شامخاً بسيطاً بينما يتكون الداخل من مجموعة أفنية معقدة التركيب . ويمكننا أن نستثني من ذلك بعض المنشآت النفعية كالجسور وأبراج الهواء وغيرها .

٤ - ليس هناك ضرورة بوجود تطابق بين الشكل والوظيفة ، فقد حول الشكل إلى تكوين يخدم وظائف متعددة ومتباينة . فالايوان مثلاً ، يمكن وضعه في تكوين متناظر يخدم الجامع أو المدرسة أو المستشفى أو الخان أو القصر .

٥ - ثمة إهمال متعمد في إيجاد تطابق قوى المحور مع قوى بعض الأحياز التي تمثل بدورها قوى موجبة في العمارة . فلو أخذنا على سبيل المثال القوى الموجبة في مدخل القصر أو الجامع فإنها لا تتطابق دائماً مع قوى المحور المتكون من تناظر الايوانات . ورغم أن هذه الصفة لها استثناءات كثيرة ولكنها تبدو كصفة بارزة عند مقارنة العمارة الاسلامية بالأوروبية .

٦ - هناك إهمال في ثوازن التكوين المعماري وتمائله . ويستثنى من هذه الصفة الايوان . فالقاعدة العامة للتكوين المعماري هو ترك المجال مفتوحاً للاضافة أو الالغاء أو التعديل على أي مكان أو اتجاه في العمارة . وتكون حصيلة ذلك إغناء التكوين المعماري وتنويعه ، ولا يؤدي ذلك أبداً إلى إفقاره أو تحديده .

٧ - تزيين العمارة مقتصر على الداخل .

٨ - يفيد التزيين في العمارات الأوروبية خدمة الوظائف الانشائية لها وتأكيد التكوين المعماري كالتماثل والتوازن وغيره . بينما نجد نقيض ذلك في العمارة الاسلامية . فالتزيين هنا ينكر حتى المفهوم المعماري في العمارة كما يفهمها الأوروبي . إنه يركب أنماطاً هندسية فوق العناصر الانشائية - مؤكداً بهذا على هندسة النمط - ويصبح التأكيد موجهاً إلى التكوين الهندسي في النمط عوضاً من أن يكون النمط أو التزيين مؤكداً للعنصر الانشائي . فمثلاً يصبح واضحاً للعيان عند مقارنة العمارة الاسلامية والقوطية ، أن شكل السرة في العمارة القوطية - وهي الحجرة أو الحلية الناتئة عند ملتقى العقد - يؤكد وظيفتها الانشائية . إضافة إلى هذا ، فإن التزيين في العمارة الاسلامية بشكله - كنمط - ينتقل من مادة لأخرى دون أن يتأثر كثيراً بطبيعة المادة المنقوش عليها . فمثلاً نجد التزيين نفسه على الخشب أو الجص أو الكاشي . وأخيراً نجد النمط بذاته ينتقل من حيز واحد إلى حيز ثان وثالث دون أن يتأثر بالوظائف النفعية لتلك الأحياز . وإن وجد شيء من هذه الصفات في العمارة الأوروبية ولا سيما الأسبانية فإنه متأثر ، دون ريب ، بالعمارة الاسلامية .

٩ - التجريد الهندسي الثلاثي ويتكون من التقاء شكلين أو أكثر يكونان متطابقين أو مختلفين ويتكون منهما شكل ثالث جديد . فمثلاً يكون التقاء مربعين شكلاً جديداً مركباً يتخذ هيئة مثلث خارجي وآخر داخلي وثمانية مثلثات . ويمكن تكوين تراكيب أخرى أكثر تعقيداً ينتقل فيها الشكل من مثلث إلى معينات فدوائر إلخ . لا يضاهاى هذا الابداع في التكوين الهندسي - حسب وجهة نظري - لدى الغرب سوى التزيين بالزجاج الملون في الكاتدرائيات الفرنسية أو الانكليزية .

١٠ - وأخيراً دور الخط العربي التكويني في العمارة . لا يخدم الخط العربي في الجوامع والقصور غرضاً إعلامياً فحسب ، وإنما يعتبر تزييناً نبيلاً وجليلاً .

هذه صفات عامة للعمارة الإسلامية العربية ، ولا ينفي وجود هذه الصفات في كل قطر إسلامي بروز بعض منها واتخاذها مكان الأولوية فيها وخفوت البعض الآخر . ونجد شيئاً من هذه الصفات واضحاً بيناً في القصر العباسي والمدرسة المستنصرية في بغداد وقصر الأخيضر في جنوب بغداد وكذلك في سامراء شمال بغداد .

○ في هذا الإطار ، يمكننا تحديد الصفات التي ينبغي أن تتسم بها العمارة العراقية . وبداية نقول إن هذا التحديد يحتاج إلى المزيد من الدراسة والتأمل قبيل القيام بالتعميم . ومع ذلك فما دامت هذه هي الصفات العامة للعمارة العربية بمرتبها الكلاسيكية ، فإن للعراق خصوصيته المحلية المتميزة . ويمكننا القول إنها تتمثل في مناطق أو خطوط معمارية واضحة في أنحاء القطر . وأود أن أشير إلى الخط المعماري الممتد من منطقة سامراء مروراً ببغداد وانتهاء بالبصرة . ما هي أهم مميزات أو خصوصية هذا الخط ؟ تتمثل صفات هذا الخط في أزقة بغداد ، فإذا تجولنا في أزقة بغداد ، فبقدر تعلق الأمر بالمنظور الخارجي لهذه الأزقة ، نجد أن الصفات العامة تعتمد على بناء الجدار الآجوري المبسط الذي يعتليه هيكل خشبي يتم إملاءه بعنصر ثانوي من الخشب أو الطابوق .

فإذا حاولنا تأمل الصفات التي تتميز بها ، يمكننا القول ، إنها تتكون من عناصر قليلة ومحدودة . والعلاقات التكوينية للدار الواحدة هي كذلك مبسطة ومتكررة وهي ثابتة إلى حد كبير . إذن فواجهة الدار ليست سوى تكوين مصغر محدود العناصر والألوان ، ولكن هذا التكوين يظهر في بعض الأحيان بتعقيد واضح ، وهو في كل الأحوال تكوين يختلف عن تكوين الدار الأخرى بسبب اختلاف المتطلبات النفعية لكل دار بالذات . ليس ثمة نحتية متميزة في واجهة البيت الذي يشكل وحدة تكوينية بحد ذاتها ، وإنما توجد ، بل وتظهر لنا في التنوع اللانهائي وفي التكوينات المصغرة والتي تكون الرزاق ككل . إنها ليست نحتية ينظر إليها من الأمام ، لأن البيوت لم تشيد على قطع من الأرض مستقلة عن بعضها البعض ، بل شيدت في دهاليز متلاصقة ، ثم إنها لم تعمم لكي ينظر إليها بل المرور بها . فالمرء لا ينظر إليها ، وإنما العكس فهي تنظر إليه من شبابيكها وشرفاتها وشناشيلاتها ومن خلف ستائر القماش التي تحجب باطن الدار . والمرء يتعرض في تلك الأزقة إلى تنوع يتوالى في كل خطوة يخطوها ، بل إن التنوع يستمر حتى عندما يتوقف المرء فينظر تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف وتارة إلى الأعلى . ولكن لهذا التنوع خصوصية ، وخصوصيته تتميز بأن التكوين المعماري يضم عنصر المباغته ، لأن المرء لا ينظر إلى التكوين بكامله من موقع معين ، بل أن على المرء أن يتجول لتتفتح أمامه العلاقات المعمارية ، وقد لا يكفي حتى هذا ، لأن هذه العلاقات تكمن فوق مستوى النظر ، فعليه إذا أراد أن يرى ، أن ينظر إلى الأمام وإلى الأعلى ويلج في الإبصار بل والتبصر ليتعرف على العلاقات المتعاقبة فيتذوق تنوعها . فالرزاق لا يتسلسل تسلسلاً واعياً ولا عمدياً ، إذ أن تكوين البيت في علاقته مع تكوين البيت الآخر جاء بصورة تصادفية عشوائية . ولكن التكرار الإيقاعي لعناصر الدار هو الذي يظهر فيبرز التنوع الجزئي في التكوين الخاص لكل بيت من البيوت . ويمثل هذا الحصر والتكرار والتنوع يتحول الرزاق إلى وحدة مترابطة . إن الرزاق البغدادي ليس عقداً متسلسلاً في تكوين موحد ، إنه منفرد الخرزات ، لكنه في الوقت عينه كالأقاصيص المتفرقة والمتوالية التي تتألف منها سلسلة ألف ليلة وليلة مثلاً ، لكل منها لونها ومذاقها ، لكنها كلها مرتبطة بسلسلة التصور ومحصورة باستمرارية الحديث والتشويق للاستمرارية .

ونحتية الزقاق نحتية ديناميكية لأنها مليئة بالعناصر ذات القوة الدافعة ، فالبروزات المتعاقبة تكون قوة دافعة في اتجاه الإيقاع ، ولكنه إيقاع يتأكد ويتضخم في التكرار المتنوع من الإيقاعات المتشابهة في البيوت المجاورة والمقابلة والبيوت الأخرى التي تكون الزقاق . ومجموع هذه العناصر تبرز وترتد وترتفع فتكون سطوحاً ونبوءات تتواهب فيها القوى من واحدة إلى أخرى إلى أن تتلاشى في الظلال الداكنة لنهاية الزقاق ومن هنا مصدر ديناميكية زقاق بغداد (شكل ٢) .

○ ماذا يقترن من التراث وكيف يتم صهره في العمارة الحديثة بحيث تلبى الطموح المنطلق نحو تكوين حضارة جديدة ؟ يتطلب هذا الأمر وجود الإبداع والتجديد والإيمان الصادق بالتراث لدى العاملين في هذا الحقل . ويحتاج في الوقت ذاته إلى تهيئة خطة شاملة تتضمن استراتيجيات مرحلية لغرض معالجة قضية التراث وعلاقته بالتجديد من وجهين متزامنين ومتراپطين هما :

أولاً - الحفاظ والاحياء : الحفاظ يعني صيانة المنشآت والحفاظ عليها دون أي تعديل أو تغيير على وجه الإطلاق . والاحياء صيانة المنشآت وتوظيفها للأغراض النفعية السابقة أو لأغراض جديدة . فمثلاً يمكن تحويل دار إلى مركز عمل حر في أو دائرة إعلام أو أي شيء من هذا القبيل . وتتخذ وظيفة الحفاظ والاحياء في التخطيط الحضاري ثلاثة أوجه :

١ - الحفاظ على معالم التراث كمرجع لدراسات آنية ومستقبلية . ٢ - الحفاظ عليها كموجودات تراثية لغرض المتعة وإشباع الحنين السلفي وتكوين عقد « مراكز » تراثية متنوعة في المدينة الجديدة وذلك لتلافي الملل وخلق نبض حي في المدينة . ٣ - الحفاظ عليها باعتبارها تمثل خلفية لتكويننا وكياننا الحضاري .

يتطلب تطوير هذا الوجه - الحفاظ والاحياء - العمل على تحديد الطرق المجدية والكفيلة بتعيين المواقع الأثرية ومراتبها وأولويات برمجة الحفاظ وتحديد حقول الاحياء .

ثانياً - الوجه الثاني هو تاريخية التراث المعماري . ويقتضي الاستمرار في بحوث تحديد السمات المعمارية للتراث العراقي في مختلف العصور والفترات الحضارية . وعلينا تقديم هذه الصفات كي تتكشف أمام المعماري العربي الصفات التراثية تكشفاً واضحاً بحيث يتمكن من العمل إنطلاقاً من قاعدة علمية متبلورة دون الاعتماد على أهوائه الخاصة . إن هذه القاعدة العلمية ستبلور ، دون شك ، بدائل متنوعة لمواقف المعمار من التراث . ويشكل هذا التنوع إحدى الضمانات الكفيلة بتكوين حضارة متنوعة تتدفق فيها دماء الحياة . إضافة إلى ذلك ، فإن مكنة التنوع تضمن لنا عدم الوصول إلى طريق مسدود في نهاية المطاف . ولكي نتمكن من صهر جوهر التراث في بدائل معمارية معاصرة تضاهي بعضها الآخر ، وتتفاعل فيما بينها ، ويحفز بعضها البعض ، لا بد أن تكون عملية الصهر منسجمة مع متطلبات مراحل التطوير ومع الموجودات التراثية للمواقع المختلفة في القطر المعين .

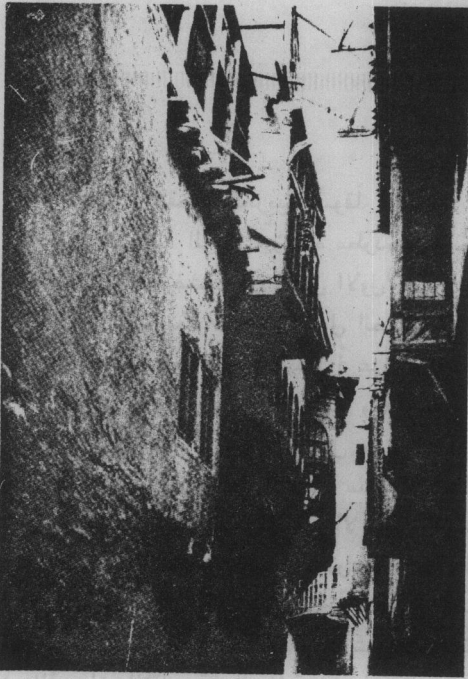
نستنتج مما مرّ ذكره أن هناك ضرورة ملحة لوضع خطة شاملة تعالج وتبحث :

١ - تحديد صفات التراث الفعال والتراث المسبب . ٢ - مواقع موجودات التراث وعلاقتها بالبيئة . ٣ - تحفيز المعماري لاستحداث بدائل متنوعة في صهر التراث واستخدامه في مختلف المتطلبات والبيئات . ٤ - تحفيز المماريين المبدعين على تطوير طرق ومفاهيم متنوعة في معالجة التراث ولا بد من التأكيد في هذا الصدد بأن تجربة معالجة التراث يجب أن تعتبر وتظل تجربة

دائمة الاستمرار سواء كان ذلك في الاقتباس أو الصهر من أجل تأمين المكنة للمعمار العربي ليسهم إسهاماً مؤثراً في تكوين حضارة عربية جديدة معاصرة وطليعية . وتستمد هذه الحضارة جوهرها ، في الوقت نفسه ، من المثل الاسلامية والعربية وتمتلك ، بلا ريب ، خصوصية قومية وقطرية مبدعة .

وأخيراً أود التذكير بأن التاريخ قاس لا يرحم ، وأن تقويم الأجيال المقبلة لعملنا سيكون تقويماً عسيراً . فالعمارة التي لا تستطيع الابداع سيكون مصيرها في خانة الابتدال ، والتطلعات العربية لا تريد هذا . ولا ترضى به .

إن توليد العمارة المهذبة يتطلب لوازم عديدة منها : ١ - المعرفة . ٢ - الابداع . ٣ - القناعة الصادقة في مسألة التراث . ٤ - حرية فرصة العمل □



شكل ٢ - زقاق بغداد



شكل ١ - يتفاعل الفرد مع العمارة حين يتجول داخلها وحده